فلسفة الطائشة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

... وهذا مجلس من مجالس الطائشة مع صاحبها، مما تسقطه من حديثها؛ فقد كان يكتب عنها ما تصيب فيه وما تخطىء، كما يكتب أهل السياسة بعضهم عن بعض إذا فاوض الحليف حليفه أو ناكر الخصم خصمه؛ فان كلام الحبيب والسياسي الداهية ليس كلام المتكلم وحده، بل فيه نطق الدولة .... وفيه الزمن يقبل أو يدبر

وصاحب الطائشة كان يراها امرأة سياسية كهذه الدول التي ترغم صديقاً على الصداقة لأنه في طريقها أو طريق حوادثها. وكان يسميها « جيش احتلال »، إذ حطت في أيامه واحتلتها فتبوأت منها ما شاءت على رغمه، واستباحت ما أرادت مما كان يحميه أو يمنعه. وقد كان في مدافعته حبها واستمساكه بصداقتها كالذي رأى ظل شيء على الأرض فيحاول غسله أو كنسه أو تغطيته... فهذا ليس مما يغسل بالماء ولا يكنس بالمكنسة ولا يغطى بالأغطية، إنما إزالته في إزالة الشبح الذي هو يلقيه أو إطفاء النور الذي هو يثبته

في كل شيء على هذه الأرض سخرية، والسخرية من الحسن الفاتن الذي تقدسه، تأتي من اشتهاء هذا الحسن؛ فذاك إسقاطه سقوطاً مقدساً... أو ذاك تقديسه إلى أن يسقط، أو هو جعل تقديسه باباً من الحيلة في إسقاطه. لا بد من سفل مع العلو يكون أحدهما كالسخرية من الآخر؛ فاذا قال رجل لامرأة قد فتنته أو وقعت من نفسه: « أحبك » أو قالتها المرأة لرجل وقع من نفسها أو استهامها، ففي هذه الكلمة الناعمة اللطيفة كل معاني الوقاحة الجنسية، وكل السخرية بالمحبوب سخرية بإجلال عظيم... وهي كلمة شاعر في تقديس الجمال والاعجاب به، غير أنها هي بعينها كلمة الجزار الذي يرى الخروف في جماله اللحمي الدهني، فيقول: « سمين.... ! »

لهذا يمنع الدين خلوة الرجل بالمرأة، ويحرم إظهار الفتنة من الجنس للجنس، ويفصل بمعاني الحجاب بين السالب والموجب، ثم يضع لأعين المؤمنين والمؤمنات حجاباً آخر من الأمر بغض البصر، إذ لا يكفي في ذلك حجاب واحد، فان الطبيعة الجنسية تنظر بالداخل والخارج معاً. ثم يطرد عن المرأة كلمة الحب إلا أن تكون من زوجها وعن الرجل إلا أن تكون من زوجته، إذ هي كلمة حيلة في الطبيعة أكثر مما هي كلمة صدق في الاجتماع، ولا يؤكد في الدين صدقها الاجتماعي إلا العقد والشهود لربط الحقوق بها، وجعلها في حياطة القوة الاجتماعية التشريعية، وإقرارها في موضعها من النظام الانساني؛ فليس ما يمنع أن يكون العاشق من معاني الزوج، أما أن يكون من معنى آخر أو يكون بلا معنى فلا؛ وكل ذلك لصيانة المرأة ما دامت هي وحدها التي تلد، وما دامت لا تلد للبيع....

وفلسفة هذه الطائشة فلسفة امرأة ذكية مطلعة محيطة مفكرة، تبصر بالكتب والعقل والحوادث جميعاً، وقد أصبحت بعد سقطة حبها ترى الصواب في شكلين لا شكل واحد؛ فتراه كما هو في نفسه، وكما هو في أغلاطها

وقد أسقطنا في رواية مجلسها ما كان من مطارحات العاشقة، واقتصرنا على ما هو كالاملاء من الأستاذة....

* * *

قال صاحب الطائشة: ذكرت لها « قاسم أمين » وقلت: إنها خير تلاميذه.... حتى لكأنها تجربة ثلاثين سنة لآرائه في تحرير المرأة. فقالت: إنما كان قاسم تلميذ المرأة الأوربية، وهذه المرأة بأعيننا فما حاجتنا نحن الى تلميذها القديم؟

قالت: وأبلغ من يرد على قاسم اليوم هي أستاذته التي شبت بها أطوار الحياة بعده، فقد أثبت قاسم — غفر الله له — أنه انحصر في عهد بعينه ولم يتبع الأيام نظره، ولم يستقرىء أطوار المدنية؛ فلم يقدر أن هذا الزمن المتمدن سيتقدم في رذائله بحكم الطبيعة أسرع وأقوى مما يتقدم في فضائله، وأن العلم لا يستطيع إلا أن يخدم الجهتين بقوة واحدة فأقواها بالطبيعة وأقواها بالعلم، وكأن الرجل كان يظن أنه ليس تحت الأرض زلازل ولا تحت الحياة مثلها

مزق البرقع وقال: « إنه مما يزيد في الفتنة، وإن المرأة لو كانت مكشوفة الوجه لكان في مجموع خلقتها — على الغالب —

ما ردُّ البصر عنها » فقــد زال البرقع ، ولـكن هل قدّر قاسم أن طبيعــة المرأة منتصرةٌ دائماً في الميدان الجنسيّ بالبرقع وبغير البرقع ، وأنها تخترع لـكلّ معركةٍ أسلحتها ، وأنها إن كشفت برقع الخزّ فستضعُ في مكانه برقعَ الأبيضِ والأحمر . . . ؟

وزعم أن « النقاب والبرقع من أشد أعوان المرأة على إظهار ماتظهر وعمل ما تعمل لتحريك الرغبة ، لأنهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف أن يعرفها قريب أو بعيد فيقول : فلانة ، أو بنت فلان ، أو زوج فلان كانت تفعل كذا . فهي تأتي كل ما تشتهيه من ذلك تحت حماية البرقع والنقاب » فقد زال البرقع والنقاب ، ولـكن هل قدّر قاسم أن المرأة السافرةَ ستلجأ إلى حماية أخرى فتجعل ثيابها تعبيراً دقيقاً عن أعضائها ، وبدلاً من أن تُلبس جسمها ثوباً يكسوه تُلبسُه الثوبَ الذي يكسوه ويزيِّنه ويظهره ويحرّكه في وقت معاً ، حتى ليكاد الثوب يقول للناظر : هـذا الموضع اسمهُ . . وهذا الموضع اسمه .. وانظر هنا وانظر هاهنا .. ما زادت المدنية على أن فكّكت المرأةَ الطيّبة ثم ركّبتها في هذه الهندسة الفاحشةَ !

وأراد قاسم أن يعلمنا الحب لنرتبطَ به الزوجَ معنا ، فلم يزد على أن جرّأنا على الحب الذي فرّ به الزوجُ منا ، وقد نسى أن المرأة التي تخالط الرجلَ ليُعجبها وتعجبَه فيصيرا زوجين — إنما تخالط في هـذا الرجل غرائزَه قبل إنسانيته ، فتـكون طبيعتُه وطبيعتها هي محل المخالطة قبـل شخصَيهما ، أو تحت ستار شخصيهما ؛ وهو رجل وهي امرأة ، وبينهما مصارعةُ الدم ... وكثيراً ما تـكون السكينةُ هي الذبوحة . وقد انتهينا إلى دهرٍ يُصْنَعُ حُبُّه ومجالسُ أحبابه في « هوليود » وغيرها من مُدُن السيما ، فان رأى الشاب على الفتاة مظهرَ العفّةِ والوقار قال : بلادةٌ في الدم ، وبلاهة في العقل ، وثِقَل أيُّ ثقل . وإن رأى غير ذلك قال : فجورٌ وطيش واستهتارٌ أيُّ استهتار . فأين تستقر المرأة ولا مكان لها بين الضدّين ؟

أخطأ قاسم في اغفال عمل الزمن من حسابه ، وهاجمَ الدين بالعُرف ؛ وكان من أفحش غلطه ظنُّه العرفَ مقصوراً على زمنه ، وكأنه لم يدر أن الفرق بين الدين وبين العُرف هو أن هذا الأخير دائمُ الاضطراب ، فهو دائم التغيّر ، فهو لا يصلح أبداً قاعدةً للفضيلة . وهانحن أولاء قد انتهينا إلى زمن العُري ، وأصبحنا نجد لفيفاً من الأوربيين المتمدنين ، رجالهم ونسائهم ، إذا رأوا في جزرهم أو محلّتهم أو ناديهم رجلاً يلبس في حِقْوَيه تُبّاناً قصيراً كأنه وَرَقُ الشجر على موضعه ذاك من آدمَ وحواء ، إذا رأوا هذا المتعفّفَ بخرْقَته . . . . أنكروا عليه وتساءلوا بينهم . مَن ؟ مَن هذا الراهب . . . . ؟

ونسى قاسم — غفر اللهُ له — أن للثياب أخلاقاً تتغير بتغيرها فالتي تُفرغ الثوبَ على أعضائها إفراغَ الهندسة ، وتُلبس وجهها ألوان التصوير — لا تفعلُ ذلك إلا وهي قد تغير فهمُها للفضائل ، فتغيرتْ بذلك فضائلُها ، وتحوّلتْ من آيات دينية إلى آيات شعرية . وروحُ المسجد غير روح الحانة ، وهـذه غيرُ روح المرقص ، وهـذه غير روح المخدع ، ولـكلّ حالةٍ تلبسُ المرأة لِبْساً تُخفي منها وتُبدِي . وتحريكُ البيئة لتتقلب ، هو بعينه تحريكُ النفس لتتغير صفاتها ، وأين أخلاقُ الثياب المصريةِ في امرأة اليوم ، من تلك الأخلاق التي كانت لها من الحجاب ؟ تبدّلتْ بمشاعر الطاعة والصبر والاستقرار والعنايةِ بالنسل والتفرّغ لاسعاد أهلها وذويها — مشاعرَ أخرى أوّلها كراهيةُ الدار والطاعة والنسل ، وحَسْبُك من شرّ هذا أوّله وأخفُّه !

كان قاسم كالمخدوع المغترّ بآرائه ، وكان مصلحاً فيه روحُ القاضي ، والقاضي بحكم عمله مقلدٌ مُتّبِع ، أليس عليه أن يسند رأيه دائماً إلى نَصّ لم يكن له فيه شأنٌ ولا عمل ؟ من ثم كثرت أغلاطُ الرجل حتى جعل الفرقَ بين فساد الجاهلة وفساد المتعلمة أن الأولى « لا تكلِّف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذي تريد أن تقدّم له أفضلَ شيء لديها وهو نفسها ؛ وعلى خلاف ذلك يكون النساء المتعلماتُ ، إذا جرى القدَرُ عليهن بأمر مما لا يحلّ لهن لم يكن ذلك إلا بعـد محبةٍ شديدة يسبقها علمٌ تامٌّ بأحوال المحبوب (....) وشمائله وصفاته ، فتختاره من بين مئاتٍ وألوف ممن تراهم في كل وقت (!!!!) وهي تحاذر أن تضع ثقتها في شخص لا يكون أهلاً لها ، ولا تُسلِم نفسها إلا بعد مناضلة يختلف زمنها وقوةُ الدفاع فيها حسب الأمزجة (????) وهي في كل حال تستتر بظاهر من التعفّف (????) . . . »(١)

(١) ص ٥١ من كتاب « تحرير المرأة » ، وهو كلام قاسم بنصه ، وأكثر ما في هذا الكتاب هو في رأينا خلط وخبط

أليس هذا كلامَ قاضٍ من القضاةِ الدَّنيِّين المتفلسفين على مذهب (لمبروزو) يقول لاحدى الفاجرتين : أيتها الجاهلةُ الحمقاء كيف لم تَتَحاشى ولم تَتَستري فلا يكونَ للقانون عليك سبيل ؟

وحتى فى هذا قد أثبت قاسم أنه لايعرفُ الأرنبَ وأُذُنيها[1] وإلا فتى كان فى الحب اختيار ، ومتى كان الاختيارُ يقع فيا يجرى به القَدَر ، ومتى كان نظر العاشقة إلى الرجال نظراً سيكولوجياً كنظر المعلمة إلى صبيانها . . . . فتدرس الصفات والشمائل فى مئات وألوف ممن تراهم فى كل وقت لتُصفِّيها كلها فى واحد تختاره من بينهم ؟ هذا مضحك !

إليك خبراً واحداً مما تنشره الصحفُ فى هـذه الأيام : كفرار بنت فلان باشا خرِّيجة مدرسة كذا مع سائق سيارتها ، فنسِّر لى أنت كلام قاسم ، وأفهِمْنى كيف تكون اثنان واثنان خمسةً وعشرين ؟ وكيف يكون فرار متعلِّمة أصيلة مع سائق سيارة هو محاذرةَ وضع الثقةِ فيمن لا يكون أهلاً لها ؟

لقد أغفل قاسم حساب الزمن فى هـذا أيضاً ، فكثير من المنكرات والآثام قد انحل منها المعنى الدينىُّ وثبت فى مكانه معنىً اجتماعىٌّ مقررٌ ، فاصبحت المتعلمة لاتتخوَّف من ذلك على نفسها شيئاً ، بل هى تُقارِفُهُ وتستأثر به دون الجاهلة ، وتلبس له (السواريه) ، وتقدِّم فيـه للرجال المهذَّبين مرةً ذراعها ، ومرة خَصْرها ..

أقرأتَ (شهر زاد) ؟ إن فيها سطراً يجعل كتابَ قاسم كلَّه ورقاً أبيض مغسولاً ليس فيه شىء . يقرأ :

قالت شهر زاد المتعلِّمةُ المتفلسفة ، البيضاءُ البضَّة ، الرشيقةُ الجميلة ؛ للعبد الأسـود الفظيع الدميم الذى تهواه : « ينبغى أن تكون أسـودَ اللون ؛ وضيعَ الأصل ؛ قبيحَ الصورة ، تلك صفاتُك الخالدةُ التى أحبُّها .... »[2]

فهذا كلامُ الطبيعة نفسِها لا كلام التأليف والتلفيق والتزوير على الطبيعة

* * *

(١) يقول العرب : « فلان يعرف الأرنب وأذنيها » أى يعرف الشىء بالعلامة التى تثبته ولا تتخلف

(٢) ص ١٠٦ من « شهر زاد » للكاتب الدقيق الأستاذ توفيق الحكيم . وقد كتبنا نحن فى هذا المعنى وكشفنا عن سره فى كتاب « أوراق الورد » ص ٥١ — ٥٢ وفى غيره من كتبنا

قال صاحب الطائشة :

فقلتُ لها : فاذا كان قاسم لا يرضيكِ ، وكان الرجل مصلحاً دخلته روح القاضى ، فَخَلَطَ رأياً صالحاً وآخرَ سيِّئاً ، فلعل « مصطفى كمال » تَمثُّلِك من رجل فى تحرير المرأةِ تحريراً مزَّق الحجاب والـ ... ؟

قالت : إن مصطفى كمال هـذا رجلٌ ثائرٌ ، يسوق بين يديه الخطأ والصوابَ بعصاً واحدة ، ولا يمكن فى طبيعة الثورة إلا هـذا ، ولا يبرحُ ثائراً حتى يَتِمَّ انسلاخُ أُمتِه . وله عقلٌ عسكرىٌّ كان يمكرُ به مَكرَ الألمان حين أكرهَهم الحلفاءُ على تحويل مصانع (كروب) فحوَّلوها تحويلاً يردُّها بأيسر التغيير إلى صنع المدافع والمهلكات . وليس الرجل مصلحاً ألبتـة ، بل هو قائدٌ زَهَّاه النصرُ الذى اتفق له ، فخرج من تلك الحرب الصغيرة وعلى شفتيه كلمة : « أريد . . . . » وجعل بعـد ذلك إذا غَلِطَ غلطةً أرادها منتصرة ، فيفرضها قانوناً على المساكين الذين يستطيع أن يفرض عليهم وهم اليوم لا يملأون قبضةَ دولته ، فيقهرهم عليها ولا يناظرهم فيها ، ويأخذ كيف شاء ، ويَدَعُهم كيف أحب ؛ وبكلمة واحـدة : هو مؤلِّف الرواية والقانونُ نفسُه أحدُ الممثِّلين ...

وحِقْدُه على الدين وأهلِ الدين هو الدليلُ على أنه ثائرٌ لامصلح ؛ فان أخصَّ أخلاق الثورة حِقْد الثائرين ، وهذا الحقد فى قوة حربٍ وحدها ، فلا يكون إلا مادةً للأعمال الكثيرة المذمومة . والرجل يحتذى أوروبا ويعمل على أعمال الأوربيين فى خيرها وشرِّها ، ويجعل رذائلَهم من فضائلهم على رغم أنفهم يتبرَّأون هم منها ويُلحِقُها هو بقومه ، فكأنه يَعتَسِفُ الآراءَ ويأخذها أخذاً عسكرياً ، ليس فى الأمر الا قولةُ أريد . فيكون ما يريد . هو لم يحكم على شبرٍ من أوروبا يجعله تركياً ، ولكنه جعل رذائلَ أوروبا تتجنَّس بالجنسية التركية ...

وتالله إنه لأَيَسَرُ عليه أن يجىء بملائكةٍ أو شياطينِ من المرَدَة ، ينفخون أرض تركيا فيَمطُّونها مطاً فيجعلونها قارةً من أن يُكرِه أوروبا على اعتبار قومه أوربيِّين بلبس قبعةٍ وهَدمِ مسجد . إنه لا يزال فى أول التاريخ ، وهذا الشعبُ الذى انتصر به لم تَلِدْه مبادئُه ولا أنشأه هَدمُ المساجد وشَنْقُ العلماء ،

بل هو هو الذي ولدته تلك الأمهات ، وأخرجه أولئك الآباء ، وما كان يعوزه إلا القائد الحازم المصمم ، فلما ظفر بقائده جاء بالمعجزة ؛ فإذا فتن القائد بنفسه وأبى إلا أن يتحول نبياً فهذا شيء آخر له اسم آخر

ولنفرض « الأثير » كما يقول العلماء ، لنستطيع أن نجعل مسألتنا هذه علمية ، وأن نبحثها بحثاً علمياً ، فليكن مصطفى كمال هو اللورد كتشنر في انجلترا ، فيكسب اللورد كتشنر تلك الحرب العظمى لا حرب الدويلة الصغيرة ، وينتصر على البراكين من الجيوش لا على مثل براميل النبيذ ... ثم يستعز الرجل بدالته على قومه ويدخله الغرور ، فيتصنع لهم مرة ويتزين لهم مرة ، ثم يأتيهم بالآبدة فيسفه دينهم ، ويريدهم على تعطيل شعائرهم وهدم كنائسهم لأن هذا هو الاصلاح في رأيه . أفترى الانجليز حينئذ يضوون اليه ويلتفون حوله ويقولون : قائدنا في الحرب ، ومصلحنا في السلم ، وقد انتصرنا به على الناس فسننتصر به على الله ، وظفرنا معه بيوم من التاريخ فسنظفر معه بالتاريخ كله . . . ؟ أم تحسب كتشنر كان يجسر على هذا وهو كتشنر لم يتغير عقله ؟

إنه والله ما يتدافع اثنان أن هدم كنيسة واحدة لا يكون إلا هدم كتشنر وتاريخ كتشنر ، ولكن العجز تمهد من تلقاء نفسه ، والأرض المنخسفة هي التي يستنقع فيها الماء فله فيها اسم ورسم ؛ أما الجبل الصخري الأشم ، فإذا صب هذا الماء عليه أرسله من كل جوانبه ، وأفاضه إلى أسفل . . . ! (١)

* * *

قال صاحب الطائشة : فأقول لها : إذا كان هذا رأيك للنساء فكيف لا ترين مثل هذا لنفسك ؟

فتضعضعت لهذه الكلمة ولجلجت قليلاً ثم قالت : أنت سليتني الرأي لنفسي ، ووضعتني في الحقيقة التي لا تتقيد بقانون الخير والشر

قلت : فإذا كانت كل امرأة تغلط لنفسها في الرأي وتنصح بالرأي الصائب غيرها ، فيوشك ألا يبقى في نساء الأرض فضيلة ولا يعود في المدرسة كلها عاقل إلا الكتاب

فتضاحكت وقالت : لهذا يشتد ديننا الاسلامي مع المرأة ، فهو يخلق طبائع المقاومة في المرأة ، ويخلقها فيما حولها ، حتى ليخيل إليها أن السماء عيون تراها ، وأن الأرض عقول تحصي عليها . وهل أعجب من أن هذا الدين يقضي قضاء مبرماً أن تكون ثياب المرأة أسلوب دفاع لا أسلوب اغراء ، وأن يضعها من النفوس موضعاً يكون فيه حديثها بينها وبين نفسها كالحديث في الراديو له دوي في الدنيا ، فيقيم عليها الحجاب وغيرة الرجل وشرف الأهل ، ويؤاخذها بروح طبيعتها ، فيجعل الهفوة منها كأنها جنين يكبر ولا يزال يكبر حتى يكون عار ماضيها وخزي مستقبلها

هذه كلها حجب مضروبة لا حجاب واحد ، وهي كلها لخلق طبائع المقاومة ، ولتيسير المقاومة ، ومتى جاء العلم مع هذه لم يكن أبداً إطلاقاً ، ولم يكن أبداً إلا الحجاب الأخير كالسور حول القلعة . ولكن قبح الله المدنية وفنها ؛ انها أطلقت المرأة حرة ثم حاطتها بما يجعل حريتها هي الحرية في اختيار أثقل قيودها لا غير . أنت محلى بالذهب ، وأنت حر ، ولكن بين اللصوص ، كأنك في هذا لست حراً إلا في اختيار من يجني عليك . . . . !

لم تعد المرأة العصرية انتصار الأمومة ، ولا انتصار الخلق الفاضل ، ولا انتصار التعزية في هموم الحياة ؛ ولكن انتصار الفن ، وانتصار اللهو ، وانتصار الخلاعة

قال صاحب الطائشة ؛ فضحكت وقلت : وانتصاري ... ! ؟

طبق الأصل (ملطا) مصطفى صادق الرافعي

« تنبيه »

ليست الطائشة كل النساء ولا كل المتعلمات ، ونحن إنما نروي قصة هي في الدنيا ليس فيها كلمة من الريح ولا من زحل ؛ فأما الصالح فيرى ويفهم ، ولعله يصون بها نفسه ؛ وأما الفاسد فيرى ويعتبر ، ولعله يرد بها نفسه . ومذهبنا دائماً وجوب كشف الحقيقة ، وإذا أردت أن تأخذ الصواب فخذه عمن أخطأ

(١) سنفرد مقالا خاصاً لهذا الالحاد التركي الذبابي . . . . فقد عثرنا في النسخة الخطية التي عندنا من (كليلة ودمنة) على فصل بديع عنوانه : « كفر الذبابة » ، وسنقدمه لقرائنا